6

الموجات التاريخية للهجرة الروسية إلى مصر

تشكل الشتات الروسي في مصر في أواخر القرن التاسع عشر. وإذا كان في عام ١٨٨١ بحسب بيانات القنصلية العامة الروسية قد عاش في مصر ١٠٨ مواطن روسي[٢١٠] ، فإنه طبقا لأول تعداد سكانى عام في مصر، وصل تعدادهم في عام ١٨٩٧ إلى ثلاثة آلاف روسي[٢١١]. كانت الجالية الروسية آنذاك تتكون بشكل أساسى من اليهود[٢١٢] . وكانت هذه الجالية أحد روافد التيار العام لهجرة اليهود من روسيا ، الذي بدأ بعد اغتيال الإمبراطور " ألكسندر الثاني" عام ١٨٨١[٢١٣].

كات مصر قبلة لليهود الروس على الأقل لثلاثة أسباب أولاً : إبحار السفن من أوديسا إلى الإسكندرية بشكل منتظم ، بالإضافة إلى إنخفاض أسعار التذاكر مما أدى إلى سهولة الوصول إلى مصر. ثانياً : شمل المواطنين الروس منذ عام ١٧٧٤ ، خاصة بعد هزيمة الإمبراطورية العثمانية في حربها ضد روسيا ، ما يسمى " نظام الامتيازات" ، الذي بموجبه لن يقعوا تحت طائلة قانون السلطات المحلية ، مما أعطى وضعهم طابعاً مميزاً زد ناهيك أن إنجلترا ، التي احتلت مصر عام ١٨٨٢ ، كانت الضامن لذلك الأمر .

---

٢١٠ عن مقالة : «Исторические волны российской эмиграции в Египте»، والتي نشرت بمجلة «الأرشيف الشرقى» ، إصدار معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية للمستشرق الروسي Vladimir Belyakov . مصر في عيون الروس منتصف القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين: السياسية، والإقتصاد، الثقافة. مجموعة من الوثائق. التصنيفات والمقدمات والتعليقات، والملاحظات، وترجمات «جينادى جورياتشكين». موسكو، ١٩٩٢، السطر ١٢٥- ١٢٦ .

٢١١ «جينادى جورياتشكين» ، «ت. ج. جريتسينكو» ، «و. إ. فومين» ، الهجرة الروسية في مصر وتونس (١٩٢٠- ١٩٣٩)، موسكو، ٢٠٠٠. صـ ٦ .

٢١٢ «فلاديمير بيلياكوف» «على ضفاف النيل المقدس» الروس في مصر. موسكو ٢٠٠٣. صـ ١٠٠- ١٠٢ .

٢١٣ «سولجنيتسين» مائتا عاماً معاً . الجزء الأول . موسكو ، ٢٠٠١. صـ ٢٥٥ ، ٣٠٩ .

ثالثاً : وجود جالية يهودية كبيرة وناجحة في مصر ، والتي من خلالها لن يكون من العسير الاندماج داخل المجتمع المحلى . ووفقاً للتعداد السكانى لعام ١٨٩٧ بلغت أعدادهم ٢٥٢٠٠ شخص [٢١٤] .

على الرغم من أن الشتات الروسي كان أغلبة من اليهود ، إلا أنهم لم يجلبوا معهم إلى مصر الثقافة اليهودية فقط ، بل جلبوا أيضا الثقافة الروسية واللغة الروسية . ويشير الباحثون إلى " الهواء الروسي اليهودي الخاص " الذي تنفسه اليهود الذين عاشوا في الجنوب الروسي ، وشعورهم الجارف بالهوية الوطنية ، والولاء الشديد للثقافة الروسية [٢١٥] .

في عام ١٩٠٧ عندما تم إجراء ثاني تعداد سكانى في مصر لوحظ انخفاض طفيف في أعداد الشتات الروسي الذي بلغ ٢٤٠٠ [٢١٦] على ما يبدو أن بعض المهاجرين قد غادروا البلاد ، فيما إستوطن آخرون وحصلوا على الجنسية المصرية .

بعد اندحار الثورة الروسية الأولى ١٩٠٥ـ ١٩٠٧ اتجهت إلى مصر موجة هجرة جديدة قادمة من روسيا . وهنا ظهرت مجموعة من اللاجئين السياسيين ، ورغم قلة عددها الإ أنها كانت نشطة . وقد استقر اللاجئون السياسيون على وجه الخصوص في الإسكندرية ، وقاموا بالدعاية بين أفراد أطقم السفن الروسية ، التي تأتي بانتظام إلى الميناء الرئيس لمصر. وقد أدى القبض على ثلاثة من اللاجئين السياسيين من قبل السلطات المصرية في يناير ١٩٠٧ بناءً على طلب من القنصلية الروسية إلى مظاهرة احتجاجية لعدة أيام نظمها ممثلى الجاليات الأجنبية في الإسكندرية والقاهرة [٢١٧].

في عام ١٩١٢ ، وصلت إلى الإسكندرية اللجنة الخارجية لنقابة البحارة التجاريين في البحر الأسود برئاسة «ميخائيل أداموفيتش» قادمة من إسطنبول ، وقام أعضاؤها أيضا بنشر الدعاية الثورية بين أفراد السفن الروسية ، كما أصدروا صحيفة «البحار» الشهرية. وأدى القبض على «أداموفيتش» في مايو ١٩١٣ إلى مظاهرات عارمة اجتاحت القاهرة والإسكندرية ، مثل تلك التي حدثت في يناير ١٩٠٧ [٢١٨].

٢١٤ سيد أحمد ، نبيل عبد الحميد «اليهود في مصر» . القاهرة ، ١٩٩١ ، صـ ١٨ (باللغة العربية) .
٢١٥ «ليفين» . «عقلية الشتات». موسكو ، ٢٠٠١ ، صـ ١١٧ .
٢١٦ «جينادى جورياتشك» ، «جريتسينكو» ، «ديميترى فومين» . المرجع السابق صـ ٦ .
٢١٧ «فلاديمير بيلياكوف» . نفس المرجع ، صـ ١١٠- ١١٣ .
٢١٨ نفس المرجع صـ ١١٨- ١٢٤ .

ولم تؤد الثورة في روسيا عام ١٩١٧ إلى عودة الثوار الروس الى أرض الوطن، فقد وجدوا في مصر ملاذاً لهم، وفي عام ١٩١٩ كانت لاتزال لجنة المهاجرين السياسيين الروس ،في الإسكندرية [٢١٩]. تؤدي عملها.

سجل تعداد السكان لعام ١٩١٧ داخل مصر ٤٢٢٥ شخص من مواطنى الإمبراطورية الروسية [٢٢٠]. وكانت زيادة أعداد الشتات الروسي؛ بسبب هجرة اليهود مجددا، لكن هذه المرة من فلسطين. بعد اشتراك الإمبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولى في ٢٩ أكتوبر ١٩١٤، تدفقت أعداد كبيرة من اليهود الذين يحملون جواز السفر الروسي نازحين من الأراضي المقدسة، متجهين إلى الإسكندرية. وفي يناير ١٩١٥ قدرت أعدادهم بحوالى ٣٣٧٦ شخصاً [٢٢١] وقد وفرت لهم السلطات المصرية مساكن مؤقتة ومؤن. وعندما سنحت الفرصة أرسلوهم إلى الوطن عبر أوروبا أو من خلال الشرق الأدنى. ولكن على مايبدو أن بعضهم قرر البقاء على الأراضي المصرية.

في ربيع ١٩٢٠م وصل إلى الإسكندرية ما يقرب من ٤٣٥٠ لاجئاً روسياً [٢٢٢]، قادمون من «نوفوروسيسك»، وكان أغلبهم من الجنود الجرحى والمرضى التابعين لجيش المتطوعين وموظفي المستشفي. وكانت هذه هي الموجة الرابعة، للهجرة الروسية إلى مصر. وفي صيف ذلك العام، أرسل جزء من اللاجئين بعد تلقيهم العلاج إلى القرم، أما الجزء المتبقى منهم فقد تم وضعهم داخل معسكرات خاصة، على مدار عامين تحت رعاية السلطات الإنجليزية. وقد هجر اللاجئون الذين كانت تخصصاتهم مطلوبة في مصر، خاصة في المجال الطبى والفنى المعسكر تدريجياً وإندمجوا في الحياة المحلية، أما البقية الباقية فقد تم إجلاءهم في صيف ١٩٢٢ إلى «بلغاريا» و «صربيا».

كان المهاجرون الجدد بمثابة الهيكل للشتات الروسي، الذي تواجد في مصر بصورة مستقرة حتى منتصف عام ١٩٥٠، ثم بدأ في التقلص شيئاً فشيئاً لأسباب منطقية. وطبقاً لبيانات التعداد السكاني الدورى في مصر قدرت أعدادهم في عام ١٩٢٧ بنحو ٢٤١٠ شخصاً، وفي عام ١٩٣٧ قدرت بنحو ١١٧٦، أما في عام ١٩٤٧ كانت أعدادهم تقدر

٢١٩ أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية ملف ٣١٧. القنصلية في مصر. حافظة ١/٨٢٠، وثيقة ٥٠٨، السطر ٦.

٢٢٠ محمد محمود سليمان (الأجانب في مصر). ١٩٢٢- ١٩٥٢. القاهرة، ١٩٩٦، صـ ٦٠ (باللغة العربية).

٢٢١ أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية ملف ٣١٧، حافظة ١/٨٢٠، وثيقة ٦٥٧، السطر ١٢٤- ١٢٨.

٢٢٢ نفس المرجع حافظة ٣/٨٢٠، وثيقة ٢١٠، السطر ٦ – ١٢٨.

بـــ ١١٧٤ [٢٢٣] وفقاً لحسـاباتى التي ارتكزت بالأسـاس ، على وصف الجبانة الأرثوذكسـية الروسـية في مصر ، فإن الشـتات الروسـي بعد اندلاع الثورة المصرية عام ١٩٥٢ ، سـرعان ما تقلص إلى أكثر من النصف[٢٢٤] . وكان سـبب ذلك يرجع إلى الخوف من إضطهادات جديدة وسياسـة النظـام الجمهورى التي تهـدف إلى طرد الأجانب من مصـر . ووفقاً للقانون الجديد يجب أن تكون نسـبة العمالة داخل المؤسسـات المصرية ٧٥٪ موظفين ، و ٩٠٪ عمال ممن يحملون الجنسـية المصرية[٢٢٥] وأدى ذلك القانون الى إنتشـار البطالـة بين الأجانب وتعرض كبار السن بالمقام الأول ، الذين يمثلون الأغلبية المطلقة للجالية الروسية للإقالة .

دار مسنين قام المهاجرون الروس ببنائها عام ١٩٥٠ في حي هيليوبوليس ، وتحمل اسم القديس نيكولاي

٢٢٣ محمد محمود سليمان . المرجع السابق ، صـ ٦١ ، ٦٣ ، ٦٥ .

٢٢٤ «فلاديمير بيلياكوف» . المرجع السابق ، صـ ١٩٣- ١٩٤ ; نفس المرجع ، الجبانة الروسية في مصر . موسكو ٢٠٠١ ، صـ ١٠-٣٧ .

٢٢٥ الشرقي «ماركوف» . الروس في مصر// «روسكايا ميسل» ، باريس ، عدد ٦٣٧ ، ٣ . ٣. ١٩٥٤ .

بحلول الثمانينيات من القرن العشرين، لم يعد هناك وجود للمهاجرين البيض الروس في مصر. وفي عام ١٩٨١، تم بيع إحدى الشقق بوسط القاهرة خُصصت منذ عقود للنادي الروسي الذي كان يضم مطعماً ومكتبة. وفيما يخص كنيسة القديس «نيكولاي» صغيرة الحجم التابعة لبيت المسنيين، فقد تم نقلها إلى البطريركية اليونانية بالإسكندرية[٢٢٦].

تركت الجالية الروسية في مصر أثراً كبيراً، وغير محدود مقارنة بأعدادها. وكان أغلبها من المتخصصين، الحاصلين على تأهيل عال، ومن بينهم الأطباء وعلماء المصريات، ورجال الثقافة والفن.، ومازال المصريون من الجيل القديم، يتذكرون بكل امتنان هؤلاء الناس. وقد أسهم الروس بقسط كبير في تنوير المصريين وتحديث الدولة.

بنهاية الستينيات وبداية السبعينيات، وبشكل موازٍ لبقايا جالية الهجرة البيضاء، ظهرت جالية جديدة من السيدات السوفيتيات، اللاتي تزوجن من مصريين أثناء فترة دراستهم في الاتحاد السوفيتي. لكن في حقيقة الأمر، لا يمكن أن نطلق عليهن لقب «مهاجرات»، فقد كن يحتفظن بجواز السفر السوفيتي، كما كان بإمكانهن العودة إلى الوطن وقتما أردن ذلك. أعداد «المواطنات السوفيتيات»، كما كان يطلق عليهن آنذاك لم تكن كبيرة، حيث قطعت مصر علاقتها السابقة والوثيقة مع الاتحاد السوفيتي في نهاية عام ١٩٧٠. وفي عام ١٩٩١ وفقاً لبيانات سفارة الاتحاد السوفيتي يعيش على ضفاف النيل حوالى ٢٥٠ سيدة سوفيتية، واللاتي تزوجن من مصريين، وكانت ٥٤٪ منهن حاصلات على تعليم عالٍ[٢٢٧]. وهن يعشن في مصر إلى الآن، وتم تغيير جوزات السفر الخاصة بهن، إلى جواز السفر الروسي (أو الأوكرانى، أو غيره)، وتحمل أغلب سيداتنا، اللاتي ينتمين لهذا الجيل جواز السفر المصري أيضاً.

الشتات الروسي الحالى في مصر، يحمل الطابع الآنثوى. ولا ينبغى أن نطلق عليهم كلمة مهاجرين ذلك؛ لأن هذا الشتات تشكل نتيجة للسياحة الهائلة القادمة من روسيا إلى مصر. وفي عام ٢٠٠٩ تزايدت أعداد السائحين الروس في البلاد لتصل إلى ٢ مليون شخصاً. والعدد الدقيق لمواطني روسيا الذين يقيمون في مصربصفة دائمة، لايمكن

٢٢٦ «فلاديمير بيلياكوف» . مصر الروسية. موسكو، ٢٠٠٨، صـ ١٣٤.
٢٢٧ «فلاديمير بيلياكوف» «ماروسيا»، زوجة الشيخ، أو «مواطنات بحقوق مجزئة»، ٢٨. ٩. ١٩٩١.

معرفتـه ، حيث أنهم الآن غير مطالبين بتسـجيل أنفسـهم في القنصليات ، وكما علمت من مصادر رسمية في السـفارة الروسـية في فبراير ٢٠١٠ ، تم تقديرهم بـ ٢٠ـ ٢٥ ألف شخص، ويمثل ثلاثة أرباعهم نسـاء متزوجات من مصريين . وهن يقمن بشـكل أساسـى في المدن السـياحية ، وباقى ممثلى الجالية الروسـية يتمثل في العاملين بالقطاع السـياحى داخل الشركات السياحية ، ورجال الأعمال و الذين يخدمون السائحين ، و الشتات الروسي ،الذي يقيم بشـكل أساسـى داخل المدن السـياحية . وينزع الشتات الروسـي إلى النمو السريع فنرى أنه مع بداية عام ٢٠٠٧ ، بلغت أعداد من يحملون جواز السـفر الروسـي في مصر يتراوح ما بين ١٢ إلى ١٢ ألف شخص [٢٢٨] .

الشتات الروسي المعاصر الذي تولد من الكم الهائل من السياحة ، ساهم في نشر اللغة الروسـية والثقافة الروسـية في ربوع مصر ، كما سـاهم بقدر كبير في تقوية النموذج الإيجابى للروس الذي تكون تاريخيا لدى المصريين ، ويدعم أواصر التعاون بين الشعبين .

المغنى الروسي"فيوادر إيفانونفيتش شاليابين"، الصورة التقطت عام ١٩٣٣، من أرشيف الهجرة الروسية

٢٢٨ «فلاديمير بيلياكوف» . السياحة والتبادل الثقافي الدولي//آسيا وأفريقيا اليوم ، ٢٠٠٧ ، عدد ٩ ، صـ٧١ .